أسرار أحزانه وحكمتها ؟ أما إنه لو كُشف السر لرأينا الأفراح والأحزان عملاً فى النفس من أعمال تنازع البقاء ؛ فهذا الناموس يعمل فى إيجاد الأصلح والأقوى ، ثم يعمل كذلك لايجاد الأفضل والأرق . ومن ثم كانت آلام الحب قوية قوية حتى لكأنها فى الرجل والمرأة ، تهيئ أحد القلبين ليستحق القلب الآخر

آه من هذه اللواعج ! إنها ما تكاد تضطرم حتى ترجع النفس وكأنها موقد يشتعل بالجمر ، وبذلك يُصهَرُ المعدن الانسانى ويُصنع صنعة جديدة ؛ وإلى أن ينصهر ويتصوغ ويُصنع ، ماذا يكون للانسان فى كل شئ من حبيبه ؟

يكون له فى كل شئ روحه الثارى

* * *

قلت : بَخ بَخ[1] . هكذا فليكن الحب . إنها حين تهيج فى نفسك الحنين إليها تعطيك ما هو أجل من جمالها وما هو أبدع من جسمها ، إذ تعطيك أقوى الشعر وأحسن الحكمة .

قال : وأقوى الألم وأشدّ اللوعة . ياعجبا ! كأن الحياة لا تقدم فى عشق المحبوب إلا عشقها هى ، فاذا وقعت الجفوة ، أوحُمَّ البَيْنُ ، أو اعترى اليأس — قدّم الموت نفسه فكل ذلك شبه الموت

إن الحزن الذى يجىء من قبل العدو يجىء معه بقوة تحمله وتتجلد له وتكابر فيه ، ولكن أين ذلك فى حزن مبعثُه الحبيب ؟ ومن أين القوة إذا ضعف القلب ؟

* * *

قلت : لا يصنع الله بك إلا خيراً . فاذا كان غدٌ وانسلخ النهار من الليل ، جئنا إليها فرأيناها فى المسرح ، ولعل الأمر يصدر مصدراً آخر . قال : أرجو

ولم يكد ينطق بهذه الرجيَّة حتى مرّ بنا سبعة رجال يقهقهون ، ثم تلاقينا وجئنا ؛ ويا ويلتنا على المسكين حين علم أنها رحلتْ ؛ لقد أدرك أن الشيطان كان يضحك بسبعة أفواه . . .

من قوله : أرجو

ولماذا رحلت ؟ لماذا . . . ؟

وأما هو ؟

(يتبع — لنطا) مصطفى صادق الرافعى

(١) كلمة الاعجاب هنا عند الرضى والمدح ؛ ومثلها (زه) وهذه فارسية

ســـالزبورج

مدينة المطر والموسيقى

بقلم سائح متجول

لم يطل بنا المكث فى ربوع سويسرا الجميلة فغادرنا «تسيريخ» (زيوريخ) إلى ألمانيا عن طريق شافهاوزن ، وقصدنا « منشن » (ميونيخ) عاصمة بافاريا عن طريق أوجسبورج واولم ؛ وفى أثناء الزيارة الجمركية عند الحدود الألمانية ، أحصى الموظف المختص ما معنا من صنوف النقد الأجنبي وقيمه وأثبتها بعد الاطلاع عليها فى شهادة خاصة ؛ وهذا إجراء لا بد منه لكى يستطيع السائح أن يخرج من ألمانيا بما يحمل من صنوف النقد الأجنبي ، ووصلنا إلى « منشن » عصراً بعد رحلة ممتعة خلال سهول بافاريا الغنية ، فألفينا المدينة تموج بالوافدين عليها من السياح من مختلف الأقطار ، وألفينا الفنادق غاصة بالزائرين ، وقد رفعت أجورها جميعاً عن الأسعار الرسمية المدونة فى سجل الفنادق الألمانية ؛ وقد كانت دورة الألعاب الأولمبية قد بدأت فى برلين قبل ذلك بأيام ، فلم نرغب فى الذهاب إليها اجتنابا لضجيجها وحياتها الصاخبة ، وآثرنا البقاء فى منشن وبافاريا فلم نجد ما كنا ننشد من الراحة والهدوء

وقد تحدثنا فى فصل سابق عن « منشن » ومناظرها وعن أبهاء البيرة الضخمة التى اشتهرت بها ، فلا نعود إلى ذلك . وإنما نلاحظ هنا فقط أن الفنادق الألمانية لا ترضى بالأسعار الرسمية التى تقيدت بقبولها والتى يعول عليها السائح ، وهى مدونة فى دليل الفنادق الرسمى الذى يقدم اليك ؛ وإن السائح يتكبد فى صرف تحاويل السياحة « رجستر مارك » خسائر لا مبرر لها ، فكل تحويل بخمسين ماركا أو أقل يؤخذ عنه « مارك » ويؤخذ عن المائة مارك ونصف مارك ، وهكذا فاذا ذكرت أنه يؤخذ مثل هذه النسبة أو أكثر عند شراء التحويل ، فان «العمولة» قد تصل بذلك إلى أربعة أو خمسة فى المائة ، هذا والسائح الذى يريد أن يحول ما تبقى لديه من النقد الألمانى بعد انتهاء زيارته يتكبد فى تحويله خسارة لا تقل عن عشرين أو خمسة وعشرين فى المائة ، وهذه نسبة غير معقولة

أضف إلى ذلك أن نفقات المعيشة فى ألمانيا ليست من الرخص كما يقال ، وهذا بالرغم مما وضعته ألمانيا من تسهيل فى مسألة النقد بتقرير «الرجستر مارك» للسياح ؛ وتمنح ألمانيا على سككها الحديدية تخفيضاً قدره ستون فى المائة ، ولكنها تشترط فى مقابل ذلك أن يقيم فى أرضها سبعة أيام كاملة على الأقل ، وهذا شرط مرهق بلاريب ؛ لأن إيطاليا تمنح للاجانب تخفيضاً قدره خمسون فى المائة أو أكثر على سككها الحديدية دون اشتراط الاقامة مطلقاً ، وكل ما هنالك أنك تزور معرضاً فى إحدى المدن الايطالية التى تمر بها وقد لا يستغرق ذلك أكثر من ساعتين

* * *

غادرنا « منشن » بقطار الساعة الثانية مساء إلى مدينة سالزبورج ، فوصلنا إليها بعد رحلة قصيرة وتمت الاجراءات الجمركية بسرعة فى الجانب النمسوى من المحطة ؛ ثم جزنا إلى خارج المحطة ، ولشد ما كان سرورنا ودهشتنا إذ التقينا فى فنائها بصديقنا القديم الصحفى النابه الأستاذ محمود أبو الفتح ، فبادلناه تحية حارة ، وتواعدنا على التزاور واللقاء ، ولكن الظروف لم تسمح للأسف بتلاقينا بعد ذلك ؛ وقد علمنا فيما بعد من صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم أنه كان فى نفس الوقت الذى زرنا فيه سالزبورج يقيم فى فندق بقرب فندق «شتات ميران» الذى نزلنا فيه ؛ ومع أننا كنا نجوس خلال المدينة فى كل وقت بالنهار وبالليل ونتشمى جميع المقاهى والمنتديات التى ذكر لنا الصديق أنه كان يغشاها أيضاً ؛ فاننا لم نعرف بوجوده ولم نقع له على خبر أو أثر ؛ ولعله كان يؤثر الاعتكاف والاحتجاب ليستجم كل تفكيره وخياله ثم يطالعنا بكتابه الذى اعتاد أن يخرجه كل موسم ؛ وعلى أى حال فقد كان المطر ينهمر باستمرار فى سالزبورج ، ويحمل ذوى الأمزجة الرقيقة على الاحتجاب والاعتكاف . أما نحن فقد كنا نجد فى هذا الغيث المنهمر الذى اشتهرت به سالزبورج ظاهرة بديعة من ظواهر الطبيعة ، وكنا نستقبله باسمين مرحين رغم أنه كان يغمرنا بالبلل ليل نهار . والواقع أن المطر يغمر هذه المدينة الرشيقة بنوع من الصباحة المنعشة ، كما تغمرها الشمس أيام الصحو بضوئها المنعش ؛ وحينما يسقط المطر تقدم إليك تلك المدينة منظراً بديعاً ، فالظلات تنتشر فوق الرؤوس ، ويرتدى الناس معاطف المطر الجلدية ؛ وترى المطر يقطر من المارة ، ولكن حركة المدينة تبقى على حالها ؛ ومما يلفت النظر بنوع خاص منظر السيدات وهن يرتدين المعاطف الجلدية أو معاطف صنعت من ورق خاص يسيل عليها المطر وتحمى من البلل ؛ وإذ كانت سالزبورج وقتئذ تموج بالوافدين لحضور حفلاتها الموسيقية الشهيرة ، فقد كنا نرى أسراب الحسان يرتدين هذه المعاطف الورقية المختلفة الألوان فوق ثياب السهرة ، وينساب الماء فوق معاطفهن ، كما ينساب السحر من زينتهن وعطرهن ، وهن ضاحكات مرحات لا يزعجهن البلل

وإذا كانت سالزبورج تشتهر بمطرها الذى لا ينقطع حتى فى أشد أيام الصيف ، والذى يغمرها دائماً بالبلل المنعش ، فانها تشتهر أيضاً بصفة أخرى ، هى أنها مدينة الموسيقى ؛ وشهرتها عالمية تدعو اليها الزائر من أقاصى العالم ؛ ولا غرو فهى مسقط رأس موتسارت ، وفيها بزغ مجده ؛ وما زال المنزل الذى ولد فيه موتسارت قائماً فى سالزبورج ، وفيه الجناح الذى قضى فيه طفولته ؛ وقد حول هذا الجناح اليوم إلى متحف يحج إليه المعجبون بذكرى الموسيقى الكبير ، ويتأملون فيه ذكرياته وآثاره ؛ وإنك لتشعر حين ترى هذا المنزل المتواضع الذى حرص أولو الأمر على استبقائه بشكله القديم ؛ وحين تطوف بغرفه الضيقة ذات الأسقف الخفيضة ، بنوع من التأثر يمازجه الخشوع ؛ ذلك أنك ترى فى كل زاوية من المكان أثراً حياً لذلك الذى بهر العالم وسحره منذ طفولته برائع أنغامه وروائع مقطوعاته ؛ فهنالك مسودات لكثير من قطع موتسارت كتبت بخطه ، وهنالك رسائل كثيرة ، وصور عديدة تمثله فى مناسبات وحفلات مختلفة ؛ وهنالك جمجمة الموسيقى الكبير ذاتها ، لا نجد لوضعها معنى بين هذه القطع والآثار الفنية ؛ ثم هنالك مناظر سحرية تمثل كثيراً من القطع التمثيلية التى وضع موتسارت مقطوعاتها الموسيقية واشترك فى إحيائها مثل « الدون جوان » و « زواج فيجارو » و « المزمار المسحور » و « كوزى فان توتى » و « اختطاف الحريم » وغيرها ؛ وهذه المناظر آية فى الدقة والابداع لأنها تمثل المناظر والأشخاص والألوان بحسمة واضحة ، وتدل على مبلغ ما انتهى إليه المسرح فى عصر موتسارت أعنى فى أواخر القرن الثامن عشر من التقدم ؛ ولفت نظرنا بنوع خاص من بين هذه الذكريات عدة اعلانات مسرحية ترجع إلى سنة ١٧٨٠ و ١٧٨١ ، عن روايات يشترك فى إحيائها موتسارت وقد ذكر فيها أنه يتولى قيادة الموسيقى ، وأن الأثمان عادية أو مخفضة ! ومازلنا نرى هذه الأوضاع ونقرأ هذه العبارات التى كان يتخذها المسرح منذ قرن ونصف للاعلان عن نفسه ،

فيما يصدره اليوم من الاعلانات والبرامج ! وإنك لتكاد تقرأ في هذه الغرف المتواضعة ، وفي هذه الذكريات المؤثرة طرفاً من حياة ذلك الذي لم تفنه عبقريته الرائعة شر الحاجة ؛ ذلك أن موتسارت قد بهر مجتمعات عصره بسمو فنه وافتنانه ، ونهل من منهل المجد ما شاء ، ولكنه لبث طول حياته يتخبط بين غمار الفاقة ، وتوفي مثقلاً بالبأساء والدين

وقد أسبغ تراث موتسارت وذكرياته على سالزبورج شهرة موسيقية عالية مازالت تحتفظ بها حتى اليوم . ولسالزبورج موسم موسيقي مشهور تقيمه في كل صيف في يوليه وأغسطس ، ويشترك في إحيائه أقطاب الموسيقى العالميون مثل برونو فالتر ، وفيلكس فينجارتنر ، وأرتورو توسكانيني ؛ وتمثل في هذا الموسم عدة من القطع المسرحية الخالدة التي وضع موسيقاها موتسارت وبيتهوفن وشوبرت وغيرهم من أقطاب الفن ، وتنظم حفلات موسيقية رائعة تعرض فيها قطع وأناشيد من وضعهم ، وتقوم بتنفيذها فرقة موسيقية رائعة على رأسها أحد أقطاب العصر ممن ذكرنا ؛ وتقام إلى جانب هذه الحفلات حفلات موسيقية منوعة ، كلاسيكية أو عصرية أو كنسية ؛ وقد أعدت بلدية سالزبورج لاحياء هذه الحفلات الشهيرة مسرحاً شاسعاً يمتاز بمذاجته وفخامته معاً ؛ وكنا في سالزبورج والموسم على أشده ، والمدينة تموج بالوافدين عليها من سائر الأقطار ، تغص بهم فنادقها ومقاهيها وطرقاتها ، ولم نستطع أن نشهد من هذه الحفلات الرائعة أكثر من حفلين لاستحالة الحصول على التذاكر ولأنه يجب للحصول عليها أن تشترى قبل الموعد بأيام إن لم يكن بأسابيع ، وكان مما شهدنا حفلاً موسيقياً رائعاً برآسة أرتورو توسكانيني ، نظم في ضحى يوم ماطر كثير البلل ، ومع ذلك فلم نتمكن من شهوده إلا بعد جهد جهيد

وتتخذ مدينة سالزبورج وسكانها خلال الموسم استعدادات خاصة لاستقبال آلاف الزوار الوافدين عليها ، وتنظيم ممدات الاقامة ، وتيسير حركة النقل والتنزه ، ويرابط في الطرق المؤدية إلى المسرح كثير من رجال البوليس لتنظيم حركة المرور الهائلة التي تجري حوله ، وتغص الشوارع المجاورة والمقاهي القريبة بالجماعات الأنيقة وأسراب الحسان من كل جنس وأمة ، وتسمع مختلف اللغات في كل مكان

* * *

وتقع سالزبورج في بسيط ساحر تحيط به الجبال الشاهقة ؛ ومن أشهر بقاعها ونزهها ضاحية «هيلبرون» وقصرها الشهير ، وتقع هيلبرون على مسيرة نصف ساعة من سالزبورج ، ويربطها بها ترام خاص ، يخترق طائفة من الربوع والحلات المزهرة ؛ وقد قصدنا اليها ذات صباح ماطر ، وزرنا قصرها وبساتينها الشهيرة ، ورأينا في قصر هيلبرون مناظر عجيبة لم نرها في أي أثر آخر ؛ ذلك أنه قد نظمت في هذا القصر الغريب مغارات ومجالس جهزت كلها بنوافير من المياه تنبثق من كل نواحيها في أشكال وأوضاع ساحرة ؛ ورتبت هذه النوافير والمنابع الخفية في حديقة القصر حول المماشي والأحراج بنفس البراعة والدقة ، فكنا نتصور حين تطلق المياه من منابعها الخفية أننا أمام سحر ساحر ؛ وفي هذه المغارات والمجالس تماثيل بارزة وصور من الفسيفساء صنعت على مثل صور كنيسة القديس مرقص بالبندقية. وأما القصر ذاته فهو صرح فخم من صروح القرن السابع عشر ، وقد زينت غرفه وأبهاؤه بطائفة من الصور الثمينة ومجموعات من الأثاث القديم الذي يرجع الى عصر إنشائه ، وزينت سقفه بالأخص بصور ونقوش بديعة تأخذ الألباب بدقتها وروعتها . وقد فهمنا من دليل القصر ، أن الذي أنشأ هذا الصرح الفخم أسقف سالزبورج في ذلك العصر ، وأنه هو الذي أشرف على زخرفته وتنسيقه على هذا النحو المدهش ؛ ويقع القصر وسط بستان شاسع نظمت في إحدى جوانبه حظيرة ترتع الغزلان في جنباتها ، ويؤمها زوار القصر للتفرج وملاعبة الغزلان

وعلى الجملة فأن هذه المدينة الصغيرة — لأن سالزبورج مدينة صغيرة لا يتجاوز سكانها أربعون ألفاً — تبدو بفنادقها الأنيقة ، وطرقها وميادينها المنسقة في ثوب خاص من الحسن والرشاقة ، ينم عن حسن ذوق أهلها وسلطاتها البلدية ، ويزيد في سحر سالزبورج وسناع الاقامة فيها ، فضلاً عن روحها الموسيقي ، ما فطر عليه أهلها من الأدب الجم والشمائل الرقيقة . وهذه في الغالب أخلاق أهل المدن السياحية ؛ بيد أنك تشعر في سالزبورج أن هذه الخلال الحسنة ترجع الى الفطرة أكثر منها الى مقتضيات المعاملة ، وتشعر أنها بعيدة عن الرياء المصول الذي تأنسه في المجتمعات السياحية الأخرى

وغادرنا سالزبورج لأيام قلائل ، وقد ترك بللها المنعش ، وموسيقاها الساحرة ، وذكرياتها السريعة المتعة في النفس أجمل الأثر

(***)